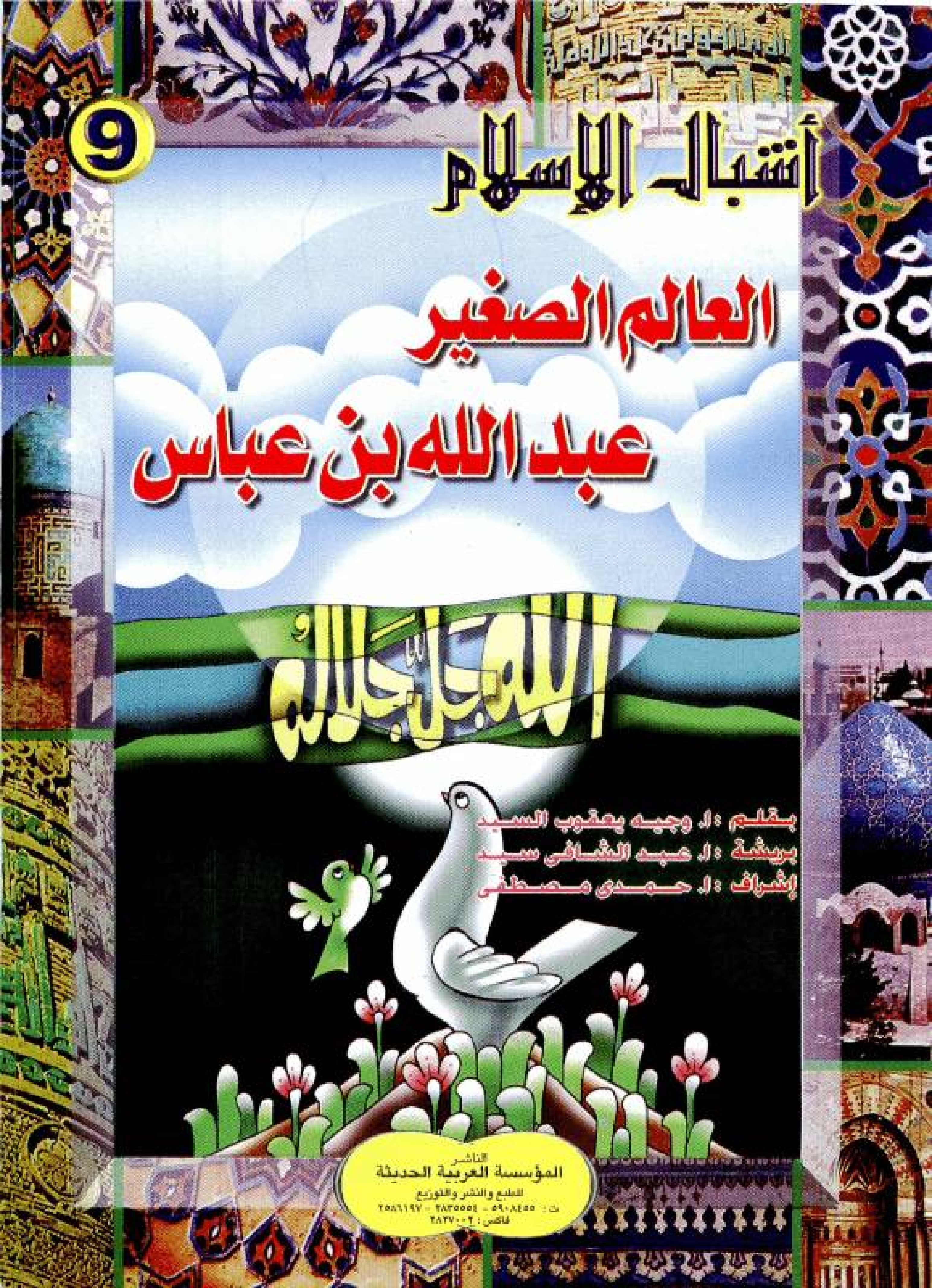
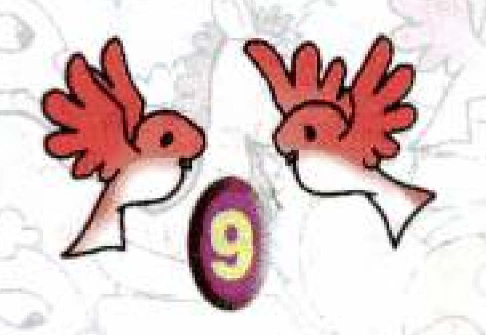

أشبال الإسلام
9
العالم الصغير
عبد الله بن عباس
الله جل جلاله
بقلم : ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافي سيد
إشراف : ا. حمدي مصطفى
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢



أشبال الإسلام

«الطفولة» مرحلة مهمة للغاية، وهى ليست مجرد مرحلة للهو واللعب وتضييع الوقت فيما لا يفيد، ولكنها مرحلة إعداد جادة لما سيكون عليه الإنسان فى شبابه وفى رجولته.

وفى هذه السلسلة تطالع:

صورًا مختلفة للنبوغ والتفوق، والبطولة الخارقة، والرجولة المبكرة عند «أبطال صغار»، صنعوا المعجزات برغم حداثة أعمارهم، فكان من بينهم: العالم، والمحارب الشجاع، وقائد الجيش.

إن «الطفل الصغير» يستطيع أن يعرف دوره فى الحياة، من خلال مطالعته لهذه النماذج المشرقة، ويستطيع أن يقدم الكثير من الأعمال النافعة لنفسه ولأسرته ولوطنه.

وسوف يجد الطفل المتعة فى أثناء قراءة هذه السلسلة التى كُتبت بأسلوب قصصى مشوق ولغة أدبية شفافة.

وجيه يعقوب السيد
مدرس مساعد بكلية الألسن
جامعة عين شمس

العالم الصغير
عبد اللَّه بن عباس

بقلم: ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة: ا. عبد الشافى سيد
إشراف: ا. حمدى مصطفى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

هذه الْوَرْدَةُ التى نَشُمُّ شَذاها الآنَ ، قدْ تفتَّحتْ بَراعِمُها فى ظِلِّ الإِسْلام ، وقدْ غَمرَ عَبيرُها كلَّ مكانٍ فى الأرْضِ ، وهى ما تزالُ فى بَوَاكيرِهَا الأُولَى .

إنهُ (عَبْدُ اللَّهِ بنُ عبَّاس) أَحَدُ الأطْفالِ الصِّغارِ الذينَ شبُّوا فى الإِسْلام ، وترَعْرَعُوا فى أَحْضانِه ، فظهرتْ عَبْقَرِيَّتُهُ وعَقْلِيَّتُهُ الْفَذَّةُ مُنْذُ الطُّفولة .

وُلِدَ (ابْنُ عبَّاس) بعْدَ هجْرَة الرَّسول ﷺ بنحْوِ ثلاثِ سَنَوات .

وبَعْدَ أَنْ وضعَتْه أُمُّه حَمَلتْهُ إلى النَّبىِّ ﷺ لكَىْ ينالَ منْهُ الْبَركَةَ ، فدلَكَ النَّبىُّ ﷺ حَلْقَ (ابْنِ عبَّاس) بريقِه الشَّريفِ ، فكانَ أَوَّلُ شَىْءٍ يَدْخُلُ جوْفَ (ابْن عبَّاس) هو رِيقُ النبىِّ ﷺ .

ومَسحَ الرَّسولُ ﷺ فى حَنَان على رأْسِ (ابْنِ عَبَّاس) ثم دعَا له بالحِكْمَة ؛ والْحكمةُ هى الْعِلْمُ ورجَاحَةُ الْعَقْلِ وحُسْنُ التصرُّف .

ومَا إِنْ بلغَ (عَبْدُ اللَّه بنُ عباس) السَّابِعَةَ منْ عُمْرِه ، ووصَلَ إلى سِنِّ الإِدْراكِ والتَّمْييز ، حتى لازَمَ رسولَ اللَّهِ ﷺ مُلازَمةَ ظِلِّه ، فلَمْ يُفارِقْهُ إلا لِلضَّرورةِ الْقُصْوَى .

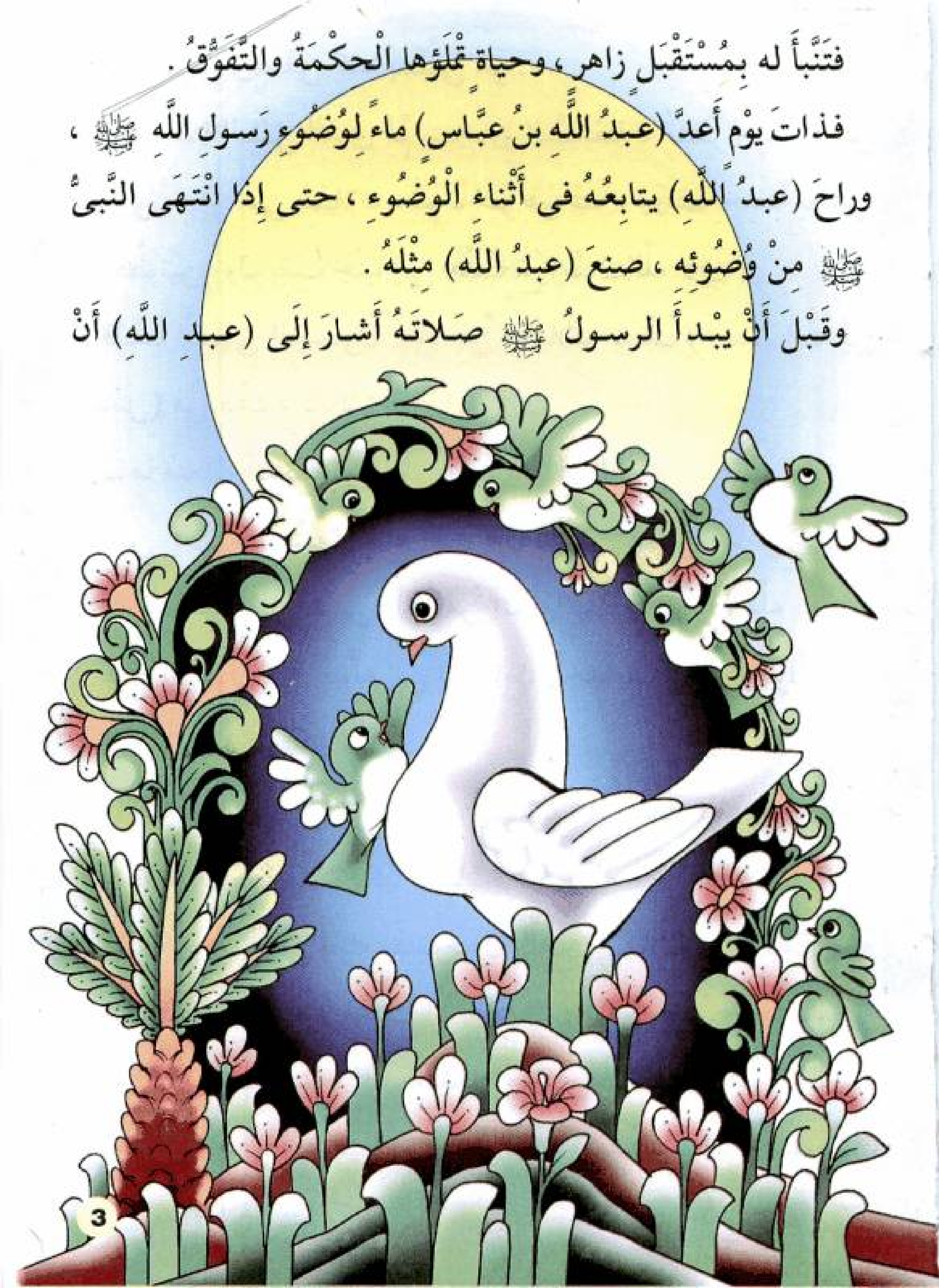
وبَقِىَ معهُ فى بَيْته يقومُ على خِدْمَته ، ويتعلَّمُ مِنْهُ مَكَارِمَ الأَخْلاق .

ولاحظَ الرَّسولُ ﷺ بَوَادرَ الذَّكاءِ والنُّبوغِ على هذا الْغُلامِ الصَّغيرِ ،

فتَنَبَّأَ له بِمُسْتَقْبَلٍ زاهرٍ ، وحياةٍ تملؤها الْحكْمَةُ والتَّفوّقُ .

فذاتَ يوْمٍ أَعدَّ (عبدُ اللَّهِ بنُ عبَّاسٍ) ماءً لِوُضُوءِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ، وراحَ (عبدُ اللَّهِ) يتابِعُهُ في أَثْناءِ الْوُضُوءِ ، حتى إِذا انْتَهَى النَّبيُّ ﷺ مِنْ وُضُوئِه ، صنعَ (عبدُ اللَّه) مِثْلَهُ .

وقَبْلَ أَنْ يبْدأَ الرسولُ ﷺ صَلاتَهُ أَشارَ إِلَى (عبدِ اللَّهِ) أَنْ



يَقفَ بجوَارِه ويُصَلِّى كما يُصَلِّى هوَ .

لكنَّ هذا الطِّفْلَ الذى لمْ يتجاوَزِ السَّابعةَ ، انْتَظَرَ حتى دخلَ الرَّسُولُ ﷺ فى صَلاته ، ثم تأخَّرَ هوَ عَنْهُ ، ووَقَفَ خلفَهُ بِخُطْوَةٍ أَوْ خُطْوَتَيْنِ ، ولمْ يَقِفْ جَنْبًا إلى جَنْبٍ معَ رسُولِ اللَّه ﷺ .

فلمَّا انْتهَى الرسولُ ﷺ مِنْ صَلاتِه سألَ (عبدَ اللَّهِ بْنَ عباسٍ) فى دَهْشَةٍ قائلاً :

ـ ما مَنعَكَ أَنْ تكونَ بإزائى يا عَبْدَ اللَّهِ ؟

وفى أَدَبٍ شَديدٍ وتواضُعٍ أَشَدَّ قال (عبدُ اللَّهِ بنُ عبَّاس) :

ـ أَنْتَ أَجَلُّ فى عيْنِى وأَعَزُّ مِنْ أَنْ أُوازيكَ يا رسُولَ اللَّه .

فرفعَ الرَّسُولُ ﷺ يدَيْهِ إلى السَّماءِ ، وأَخَذَ يدْعُو اللَّهَ ويقولُ :

ـ اللَّهُمَّ آته الحِكْمَةَ !

واسْتجابَ اللَّهُ لدَعْوَةِ نَبيِّه ﷺ ، فوهَبَ لِعَبْدِ اللَّهِ بنِ عبَّاسٍ ذاكِرةً حَديديَّةً وعَقْلاً ذكيًا فطِنًا .

فقدْ كان عُمْرُهُ فى أثْناءِ وفَاةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةَ عشرَ عامًا ، ومعَ ذلكَ فقدْ حَفظَ عَنْهُ مئاتِ الأحاديثِ ، وراحَ يَجدُّ ويَجْتَهِدُ فى فَهْمِها ودراسَتِها حتى قدَّرَ العُلمَاءُ مقْدارَ ما يَحْفَظُهُ (عبدُ اللَّه بنُ عبَّاسٍ) مِنْ أَحَاديثَ بِنَحْوِ أَلْفٍ وستِّمائَةِ حَديثٍ ،

وردَ مُعْظَمُها فى صَحيحَىِ الْبُخارِى ومُسْلِم .

إنَّ طريقَ الْعِلْمِ ، الذى وهَبَ (ابنُ عباسٍ) نَفْسَهُ له ، لمْ يكُنْ مَفْروشًا بالْوُرُودِ ، بلْ كانَ طَريقًا شاقًا ومُرْهقًا ، بدَأهُ (ابْنُ عبَّاس) مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفارِه ، حيْثُ ابْتَعدَ عَنِ اللَّهْوِ وعنْ أَصْدقاءِ السُّوءِ ، وبقِىَ مُلازِمًا لأَفْضَلِ مُعَلِّمٍ فى الْبَشرِيَّةِ (محمد بْنِ عبدِ اللَّه) ﷺ .

و(عبْدُ اللَّه بْنُ عبَّاسٍ) يَحْكِى لنا عَنْ وَصَايا الرَّسُولِ ﷺ له فى إِحْدَى رِحْلاتِه معَهُ ، يقولُ (عبدُ اللَّه) :



ـ كنْتُ خلفَ النبيِّ ﷺ وعلى آلِهِ يوْمًا ، فقالَ : يا غُلامُ ، إنِّى أُعَلِّمُكَ كلمات :

«احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ . احْفَظِ اللَّهَ تجدْهُ تجاهَكَ .

إذا سأَلْتَ فاسْألِ اللَّهَ ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللَّه .

واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لوِ اجْتَمعَتْ على أَنْ يَنفعُوكَ بِشَىْءٍ لمْ يَنْفَعُوكَ إلاّ بِشَىْءٍ قدْ كتبَهُ اللَّهُ لكَ . وإنِ اجْتمعُوا علَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لمْ يضُرُّوكَ إلاّ بِشَىْءٍ قدْ كَتبَهُ اللَّهُ عليْكَ . رُفعَت الأَقْلامُ وجَفَّت الصُّحُفُ» .

ولمْ تكُنْ هذه الْوَصايَا الرَّائعَةُ لتَمُرَّ على عَقْلِ (عبْدِ اللَّه بنِ عبَّاسٍ) الْيَقظِ هكذا ، دُونَ أَنْ يُطبِّقَها حرْفًا حَرْفًا ، فإنَّ فائدةَ الْعِلْمِ لَيْسَتْ فى مِقْدارِ ما يَحْفَظُهُ الإنْسانُ ، ولكِنْ فى مِقْدارِ ما يَنْتَفِعُ به الإنْسانُ فى حَياته وفى سُلُوكِه معَ النَّاسِ .

ولأنَّ (عبدَ اللَّه بنَ عبَّاسٍ) كان على هذا الْقَدْرِ الْكبيرِ منَ الْعِلْمِ والذَّكاء ، فقدْ كانَ الْخليفَةُ (عمرُ بنُ الْخطَّابِ) نَفْسُهُ يسْتَعينُ به فى كَثيرٍ منَ الأُمُورِ ـ وهو غُلامٌ صَغيرٌ ـ ويَهْتَدى برأْيه ويَسْتَشيرُهُ .

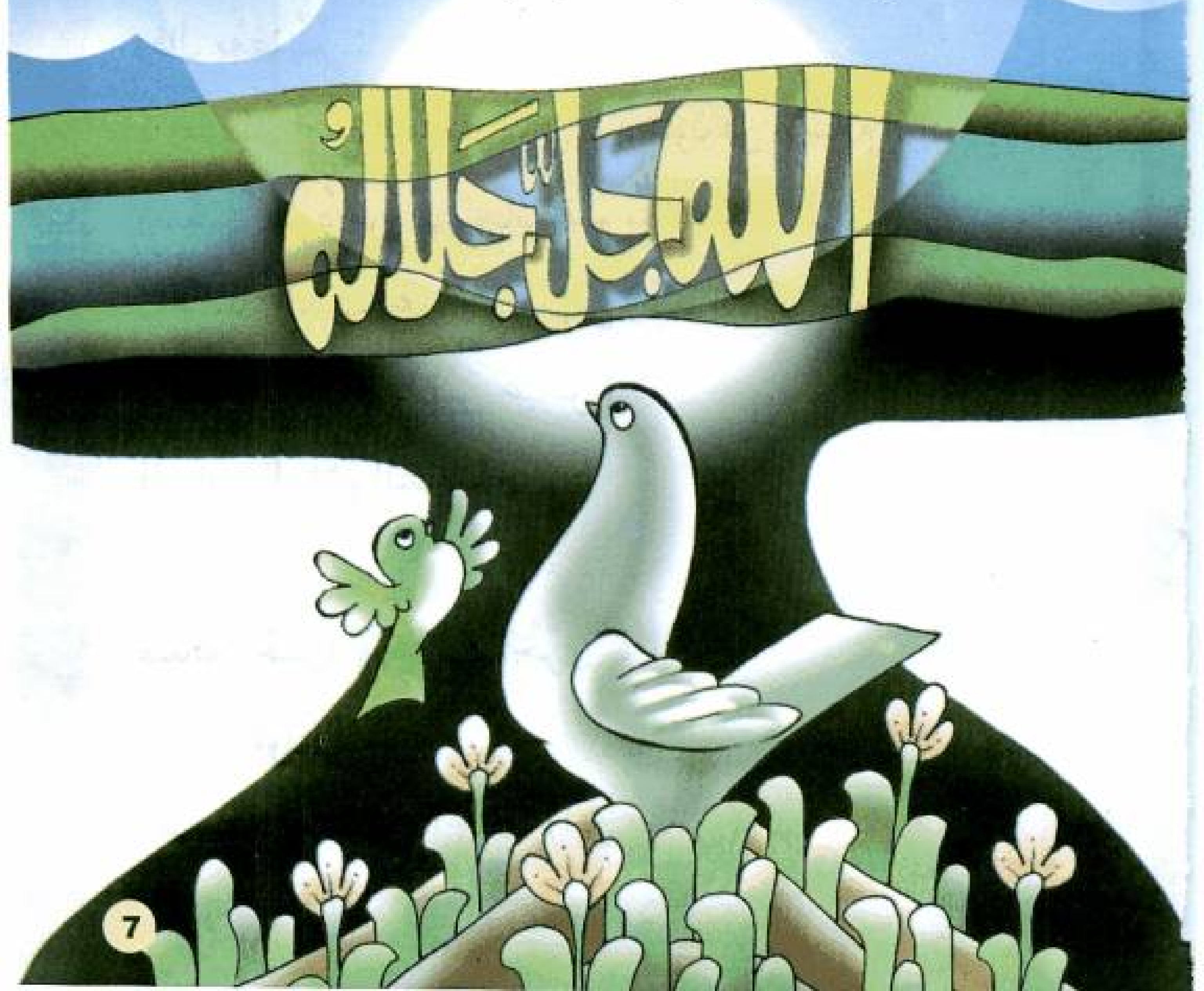
بلْ إنَّ (عُمرَ) كانَ يرْفَعُ مِنْ مَكانَته ويُدْنيه مِنْ مَجْلسِه ، برَغْمِ وُجُودِ كِبارِ الصَّحابَةِ فى هذا الْمَجْلس .

وبِسبَبِ هذا التَّصرُّف ، غَضِبَ بعْضُ كِبارِ الصَّحابةِ مِنْ

تَقْريبِ (عُمَرَ) ﵁ لهذا الْغُلامِ الصَّغيرِ ، واسْتِشارَتِه فى عِظَامِ الأُمُورِ ، وتفْضيلِ رَأْيه أَحْيانًا على رَأْىِ الْكِبارِ . وعاتَبُوهُ بقَولِهِمْ :

ـ كَيْفَ تُجْلِسُ هذا الْغُلامَ فى مَجْلِسِكَ ، وتُقَدِّمُ رأْيَهُ على آرائنا ، ومَشُورَتَهُ على مَشُورَتِنا ، ولَنَا أَبْنَاءٌ فى مِثْلِ عُمْرِه ؟

وأَرادَ (عُمَرُ) ﵁ أَنْ يلْفِتَ نَظَرَ أَصْحابِه إِلَى أَنَّ الإِنْسانَ لا يُقَاسُ بِعُمْرِهِ ، ولكنَّهُ يُقاسُ بِعِلْمِه وذَكائِه ، ولِذلكَ فقدْ دعاهُمْ ودَعَا (عَبْدَ اللَّهِ بنَ عبَّاسٍ) إِلى مَجْلِسِه .



ونظرَ (عمرُ) رضي الله عنه إلى كبارِ الصَّحابةِ ، ثمَّ سأَلهُمْ :

ـ ما تقولُونَ فى تفْسيرِ قوْلِه تعالَى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

(سورةُ النصْرِ)

فأَجابَ بعْضُ الصَّحابَةِ :

ـ أُمِرْنا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ ونسْتَغْفِرَهُ ، إِذا نَصَرنَا وفَتَح علَيْنا .

وقالَ بعْضُهُمْ :

ـ وهَذه بُشْرَى منَ اللَّه ، أَنَّ النَّاسَ سيَدْخُلونَ فى الإِسْلامِ أَفْرادًا وجَماعَاتٍ .

وسكَتَ عَددٌ منَ الصَّحابَةِ فلَمْ يتكلَّموا .

ـ عنْدَئذٍ الْتَفَتَ (عُمَرُ) رضي الله عنه إلى (عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عبَّاسٍ) وسأَلهُ :

ـ أَكذَلكَ تَقُولُ يا (بْنَ عبَّاسٍ) ؟

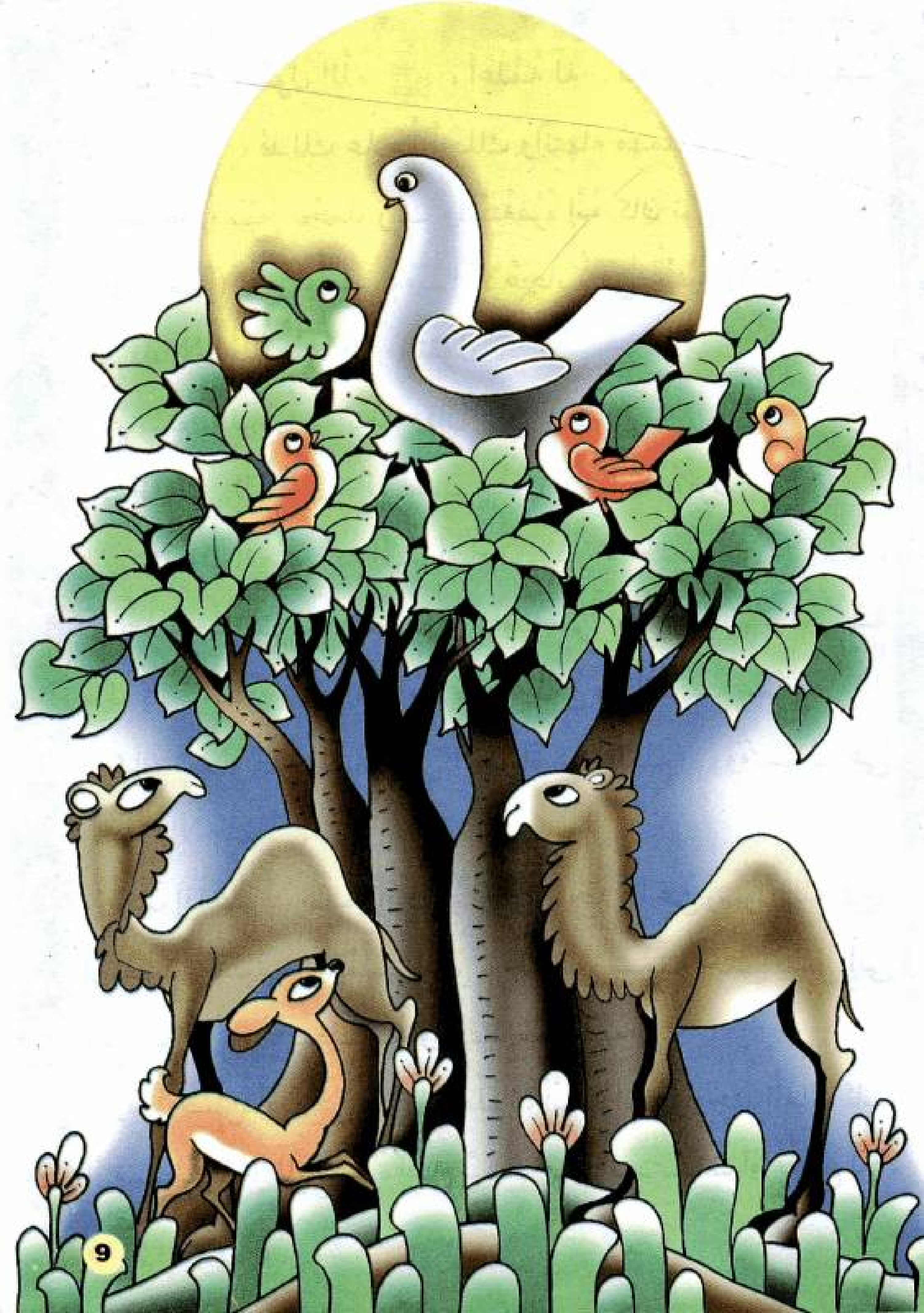
فأَجابَ الْغُلامُ الصَّغيرُ :

ـ لاَ .

فسأَلهُ (عُمَرُ) رضي الله عنه مرَّةً أُخْرَى :

ـ فما تقولُ ؟

وفِى طَلاَقةٍ وذَكاءٍ أَجابَ (ابْنُ عبَّاسٍ) :



ـ هوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، أَعلَمَهُ لَهُ . قالَ : (إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ) ، فذلِكَ علامَةُ أَجَلِكَ وانْتهاءِ مُهِمَّتِكَ .

وعِنْدَهَا (فسَبِّحْ بِحمدِ ربِّك واسْتغفِرْهُ إِنَّهُ كانَ توَّابًا) .

فهزَّ (عُمَرُ) رضي الله عنه رأسَه ، وبَدا الإِعْجابُ فى عَيْنَيْهِ وقالَ :

ـ وأَنا لا أَعْلَمُ منها إِلا ما تَقُولُ .

ثمَّ مسحَ على رأْسِهِ بِيَدِه وقالَ :

ـ إِنَّه فتَى الْكُهُولِ ، لهُ لِسانٌ سئُولٌ ، وقلْبٌ عَقُولٌ .

وهُنا أَدْرَكَ الصَّحابَةُ أَنَّهُمْ أَمامَ نُمُوذَجٍ مُخْتَلِفٍ منَ الأَولادِ ، إِنَّه غُلامٌ صَغيرٌ لكِنَّه عَبْقَرِيٌّ ، أُوتِيَ مِنْ أَسْرارِ الْعِلْمِ والْحِكْمَةِ ما لم يتيسَّرْ لِمَنْ هم فى مِثْلِ عُمرِهِ ، بلْ لِمَنْ هم أَكْبَرُ مِنْهُ عُمْرًا .

كانَ شِعارُ هذا الْغُلامِ فى الْحياةِ هوَ (الْعِلْمُ) ، ووَسِيلَتُهُ هِيَ الْجِدُّ والاجْتِهادُ .

فكانَ إذا عَلِمَ أَنَّ عالِمًا أَوْ فَقيهًا يَحْفَظُ حَديثًا عن رَسولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ يَعْرِفُ مَعْلومَةً لا يعْلَمُها هُو ، جدَّ فى سَعْيِه حتى يَصِلَ إِلى هذا الْعَالِمِ لِكَيْ يتعلَّمَ مِنْهُ ويحْفَظَ ممَّا لَدَيْه .

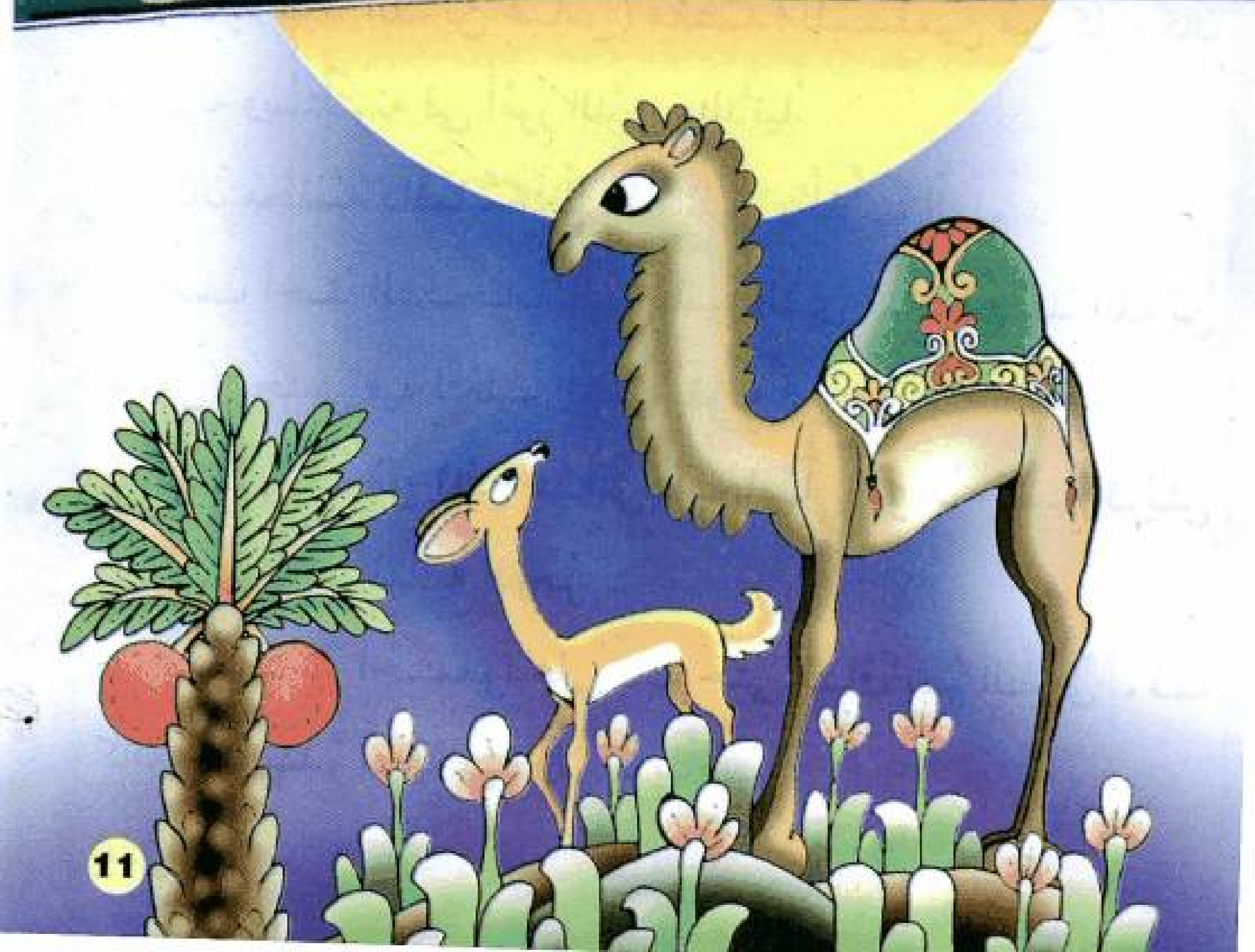
ومِنْ حُسْنِ أَدَبِه فى طلَبِ الْعِلْمِ ، أَنَّه إِذا كانَ وجدَ الْعالِمَ نائمًا أَوْ مَشْغولاً ، ظلَّ يَنْتظِرُهُ أَمامَ بيْتِه حتى يسْتَيقِظَ أَوْ يَفْرُغَ له ،

وفى كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ كانَ يتعرّضُ لِحرارَةِ الشَّمْس أَوْ لِعَصْفِ الرِّياحِ ـ وهو واقِفٌ على هذا الحالِ ـ وكانَ الْعالِمُ إِذا خرج ووَجَدَهُ على هذا الْحالِ تعجَّبَ وقال فى دَهْشَةٍ واسْتِغْرابٍ :

ـ يا بْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ما الذى جاءَ بِكَ ؟

ولِماذا لمْ تُرْسِلْ إِلىَّ فآتيكَ ؟

لكنَّ (عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عبَّاسٍ) العالِمَ الذى آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ يُجيبُهُ قائلاً :



ـ أَنا أحَقُّ بالْمَجِىءِ إلَيْكَ ، فالْعِلْمُ يُؤتَى إلَيْه ، ولا يأتى هوَ لأَحَد .

ولمْ يتوانَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) عنْ تَحْصِيل الْعِلْم بكُلِّ وسيلة ، حتى صارَ منْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، مما جعلَ الصَّحابَةَ يُطْلِقونَ عليهِ (حَبْرَ الأُمَّة) ، وذلكَ لِسعَةِ علْمِه واجْتِهاده .

فإذا سُئِلَ عَنْ تفْسيرِ آيَةٍ منْ كتابِ اللَّه أَجابَ باسْتفاضَة .

وإذا سُئِلَ عَنْ حُكْمِ الإسْلامِ فى مَسْأَلَةٍ ما ، أجَابكَ إجابةً قاطِعةً مَشْفُوعَةً بالدَّليلِ .

وإذا كانَ لا يعْلَمُ ، قال بِكُلِّ شجاعَةٍ : لا أَعْلَمُ .

وصارَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاس) مَقْصَدًا للْمُسلمين مِنْ كُلِّ مكانٍ يَسأَلُونَه ويسْتَفْتُونه فى أُمُورِ الدِّينِ والدُّنيا .

وكانَ مَجْلِسُه دائمًا مُكْتَظًا بالسَّائلينَ وطُلَّابِ الْعِلْمِ .

وصفَ أَحدُ الصَّحابةِ الْمَجْلِسَ الذى كانَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) يَجْلِسُ فيه لِتَعْلِيمِ النَّاسِ بقَوْلِه :

ـ لقدْ رأَيْتُ منَ (ابْنِ عبَّاسٍ) مَجْلِسًا ، لوْ أَنَّ جميعَ قُرَيْشٍ فَخَرتْ به لكانَ لها بهِ الْفَخْرُ .

رأيْتُ النَّاسَ اجْتَمعوا على بَابِه حتى ضاقَ بهمُ الطَّرِيقُ ، فما كانَ أَحَدٌ يقْدِرُ أَنْ يَجِىء ولا أَنْ يذْهَبَ .

فدَخَلْتُ عليْهِ فأخْبَرْتُه بمكانِهمْ على بابِهِ . فقالَ لى :

ـ ضعْ لى وضُوءاً .

فتوَضَّأ وجلَس ، وقال :

ـ اخْرُجْ إلَيْهمْ ، فادْعُ مَنْ يريدُ أنْ يسْأَلَ عنِ الْقُرْآن وتأْوِيله .



فخرَجْتُ فأعْلَمْتُهُمْ ، فدَخلوا حتى مَلَئُوا الْبَيْتَ ، فما سألوه عنْ شَىْءٍ إلا أَخبرهُمْ وزادَهُمْ .

ثم قال لى بعدَ أَنْ خَرجوا :

ـ اخْرُجْ فادْعُ مَنْ يريدُ أنْ يسْأَلَ عنِ الْحَلالِ والْحرامِ .

فدَخلوا حتى مَلَئُوا الْبَيْتَ ، فما سأَلوه عنْ شَىْءٍ إلا أَخْبرهُمْ وزادَهُمْ . ثم قال لى :

ادْعُ مَنْ يريدُ أنْ يسْأَلَ عنِ الْفرائِضِ .

فدَخلوا حتى مَلَئُوا الْبَيْتَ ، فما سأَلوه عنْ شَىْءٍ إلا أَخْبرهُمْ وزادَهُمْ . ثم قال لى :

ادْعُ مَنْ يريدُ أنْ يسْأَلَ عنِ الْعَربيَّة والشِّعْرِ .

فدَخلوا حتى مَلَئُوا الْبَيْتَ ، فما سأَلوه عنْ شَىْءٍ إلا أَخْبرهُمْ وزادَهُمْ .

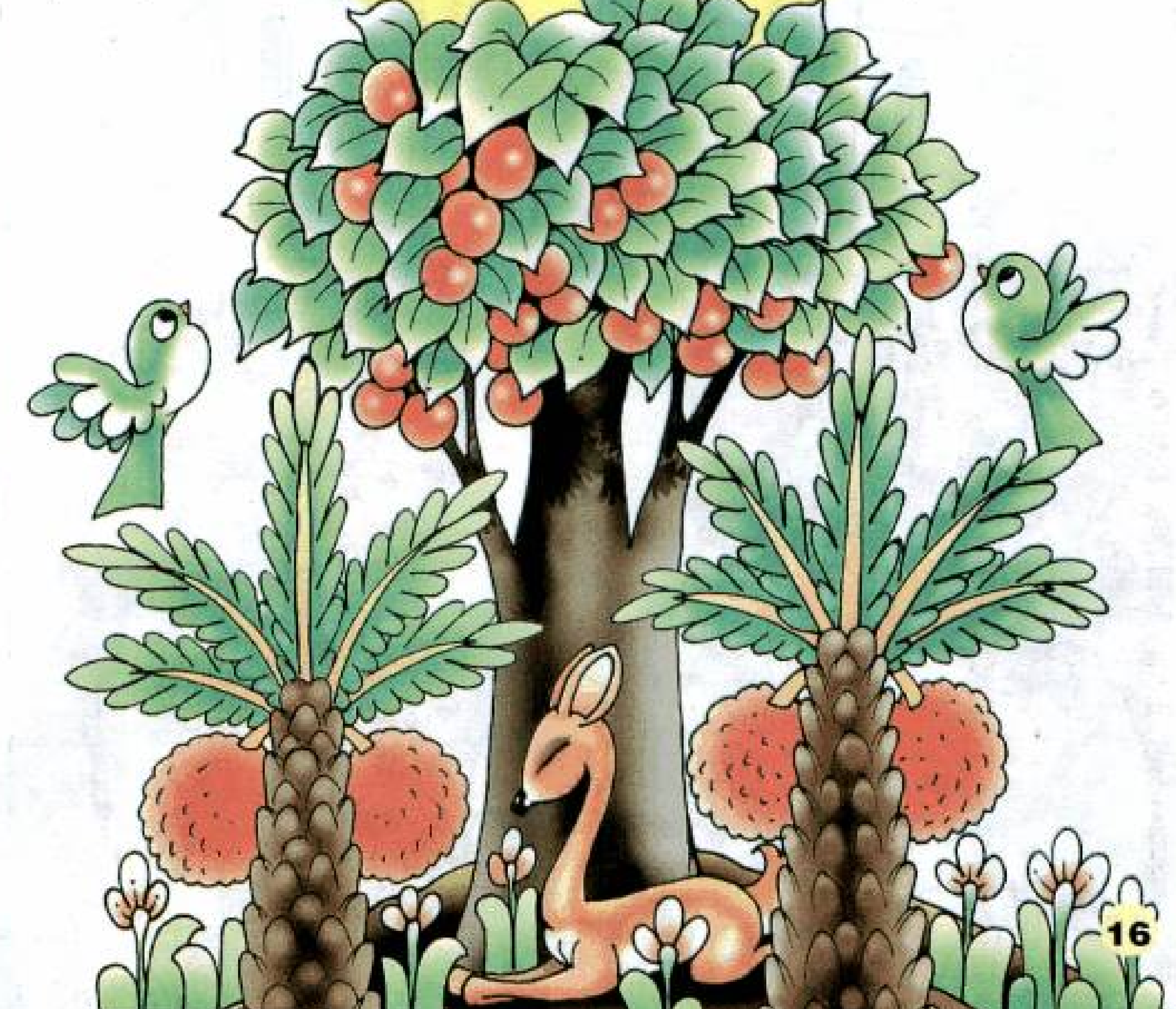
ولعَلَّ صَنيع (ابْنِ عبَّاس) هذا يدُلُّ على أَنَّ الْمُسلمين كانوا منْ أَوائلِ مَنْ عرفوا التَّخَصُّصَ فى الْعُلوم ، والْفَصْلَ بيْنَ فُروعِ الْعلمِ الْمُخْتلفَةِ ، وهذا الْمجلسُ يُشْبِه ما يَحْدُثُ فى الْمَدْرَسَةِ والْجامعةِ الآنَ ، لكنَّ هناك فرقًا واحدًا ، وهو أَنَّ الذى كان يُدرِّسُ فى ذاك الوقتِ عالِمٌ يُساوِى علْمُهُ مئاتِ الْعُلَماءِ الآنَ . إنه (عَبْد اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ) .



علىٰ أَنَّ (ابنَ عَبَّاس) لمْ يتبوَّأْ هذه الْمَكَانَةَ مِنْ فراغ ، فهوَ ـ كما رأَيْنا ـ كانَ دائمَ الْبَحْث والسَّعْيِ إلى مَجالِسِ الْعُلَماءِ .

كما كانَتْ لدَيْه ذَاكِرَة قويَّةٌ ساعَدَتْه على عَدَمِ نسيانِ ما يَحْفَظُ ، خاصَّةً إذا كانَ صاحبُ هذه الذَّاكِرَةِ رَجُلاً تقِيا وَرِعًا يخْشَى اللَّهَ ويتَّقِيه . فَعِنْدَئذٍ تكونُ ذاكِرَةُ الإنْسانِ أَقوى وأَحَدَّ مِنْ أَيَّة ذاكِرَةٍ . وكما يقول الشَّاعرُ :

شكَوْتُ إلى (وَكيع) سُوءَ حِفْظى فأَرْشَدَنى إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِى
وأَخْبَرَنِى بأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ونُورُ اللَّهِ لا يُهْدَى لِعَاصِ



ومِمَّا يَشْهَدُ لـ (ابْنِ عبَّاسٍ) بالنُّبُوغِ والذَّكاءِ أَنَّهُ لما حدثَت الْفِتْنَةُ فى عَهْدِ (على بن أبى طالبٍ) ، ووقَعَت الْحَرْبُ بَيْنَهُ وبَيْنَ (مُعاوِيةَ بن أبى سُفْيان) كانَ هُنَاكَ جماعةٌ من الْخوَارِج اعْتَرضُوا على (عَلِىِّ بن أبى طالبٍ) وانْشَقُّوا علَيْه بعْدَ أنْ خذَلُوهُ .

وعنْدَئذٍ اختار (عَلِىُّ بنُ أبى طالبٍ) هذا العالِمَ الْحَكيمَ (عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عبَّاسٍ) لكَىْ يواجِهَ هؤلاءِ الْخَوَارِجَ ، ويُصَحِّحَ لهمُ الصُّورَةَ ، ويدْحَضَ حُجَجَهُمْ الْوَاهِيَةَ .

والْتقى (عَبْد اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) بالْخَوارِجِ ، فسألَهُمْ فى اسْتِنْكارٍ :

ـ ما الذى تَنْقِمُونَ على (عَلِىٍّ) وتنكِرُونَهُ علَيْه ؟

وبعْدَ مُداولَةٍ ومُشاورَةٍ فيما بيْنهمْ أجابَ الْخَوارِجُ :

ـ نُنْكِرُ علَيْه ثلاثَةَ أُمُورٍ :

الأوَّلُ : أنَّه حكَّمَ الرِّجالَ فى دينِ اللَّهِ ، وقَبِلَ حُكْمَ (أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ) و (عَمْرِو بْنِ الْعاصِ) ، فى النِّزاعِ بيْنَهُ وبيْن (مُعَاوِيَةَ) .

واللَّهُ تعالَى يقولُ : (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ) .

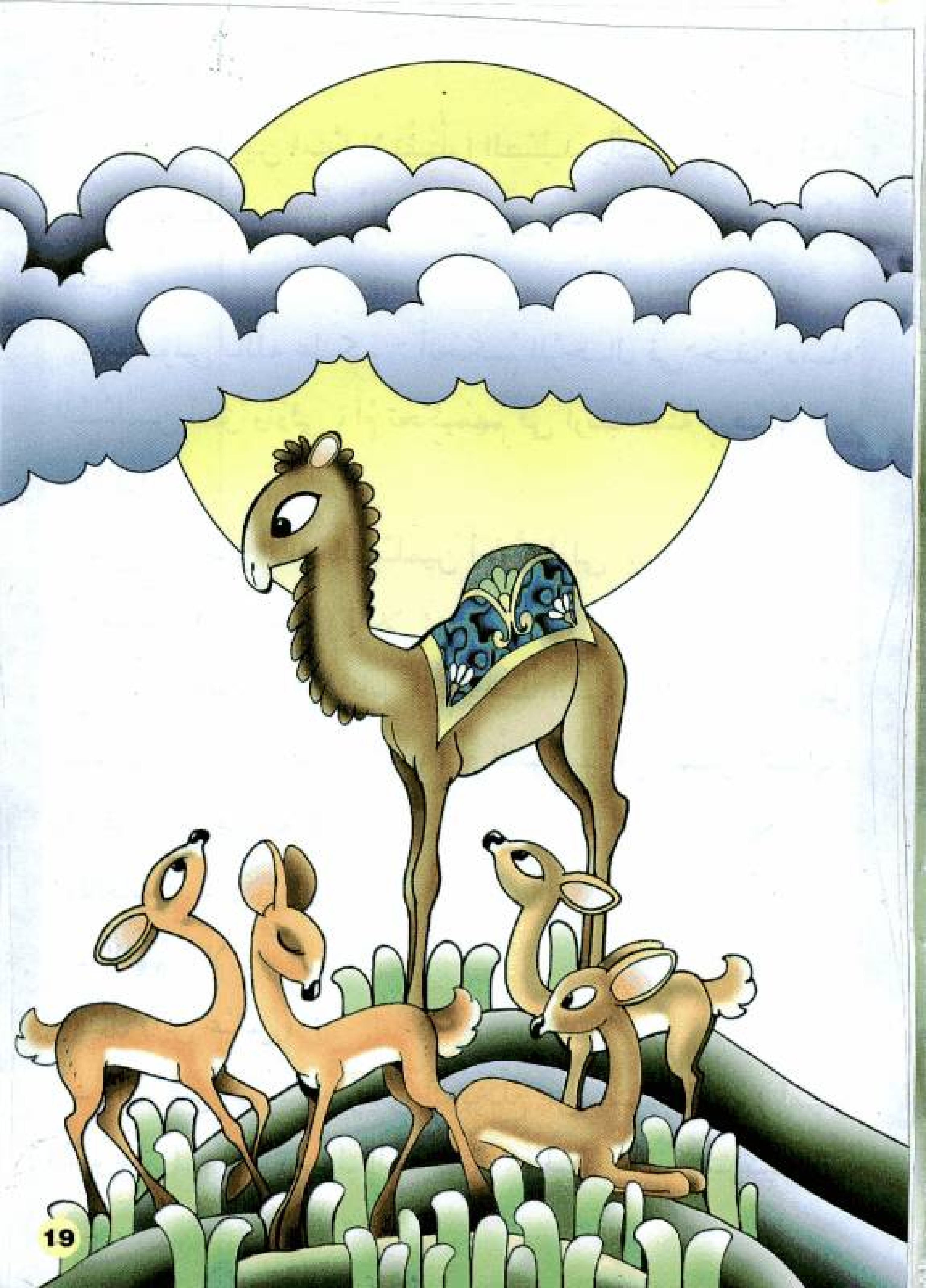
والأَمْرُ الثَّانى : أَنهُ قاتَلَ (مُعَاوِيَةَ) ولمْ يأْخُذْ مِنْهُ أَسْرَى ولا غَنَائِم ، فما الْهَدَفُ منَ الْقتالِ إِذنْ ؟

والأَمرُ الثَّالثُ : أَنهُ فى أَثْناءِ التَّحْكِيمِ قدْ مَحَا عنْ نَفْسِهِ لَقَبَ (أَمِيرِ الْمُؤمنين) اسْتِجابَةً لِمطَالِبِ أَعْدائِه ، وبذلكَ خلَعَ عنْ نَفْسه اللَّقَبَ الَّذى يَسْتَحِقُّهُ .

وبعْدَ تفكيرٍ عميقٍ ، وفى مُنْتَهى الْهُدُوءِ أَخَذ (عَبْد اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) يرُدُّ على مزاعمِهم ، ويُزيلُ الشُّبُهات مِنْ نفُوسِهِمْ .

ابْتَسمَ (ابْنُ عبَّاسٍ) ثمَّ قال :

ـ أَمَّا قوْلُكُمْ : إِنَّهُ حكَّمَ الرِّجالَ فى دينَ اللَّهِ . فأىُّ بأْسٍ ؟



إن اللَّهَ يقولُ :

﴿ يا أَيُّهـا الذينَ آمَنوُا لا تَقْتُلُوا الصَّيْـدَ وأَنْتُمْ حُـرُمٌ ومَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِه ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (المَائدة : ٩٥)

فَنَبِّـئُـونى باللَّه عليكمْ : أَتَحْكِيمُ الرِّجَـالِ فى حَـقْنِ دِمـاءِ الْمُسْلِمينَ أَحَقُّ وأَوْلَى ، أَمْ تحكِيمُهمْ فى أَرْنَبٍ ثَمَنُهُ دِرْهَمٌ ؟

فقالوا :

ـ بِلْ فى حَقْنِ دِماءِ الْمسْلمينَ أَحَقُّ وأَوْلَى .

فأَضَافَ (ابْنُ عبَّاس) قائلاً :

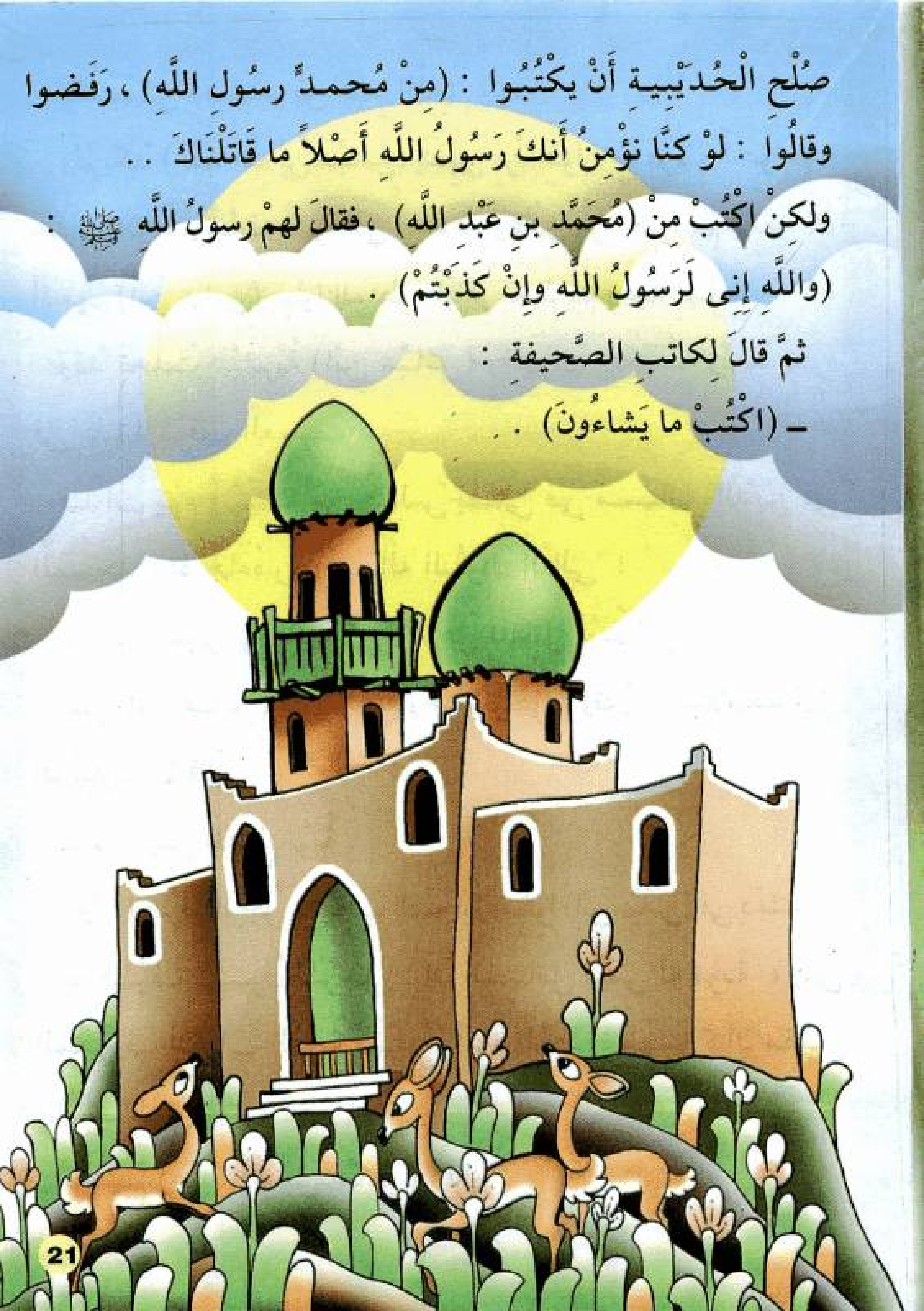
ـ وأما قـولكمْ : إِنَّه قـاتَلَ فلمْ يأْخُـذْ أَسْرَى ولا غَنَائِم ، فـهلْ كُنْتُمْ تُريدُونَهُ أَنْ يأْخُذَ (عائِشَةَ) أُمَّ الْمؤمِنينَ مِنْ ضِمْنِ السَّبايَا ، وقدْ كانَتْ معَ مُعَاوِيَةَ ؟

فأَجابوا :

ـ اللَّهُمَّ ، لا .

فقال (ابْنُ عبَّاس) :

ـ وأمـا قـولكمْ : إِنهُ رَضِىَ أَنْ يخْلَعَ عَنْ نَفْسِـه لَقَبَ (أَمـيـرِ الْمُـؤْمِنِين) ، فـإِنَّ رسـولَ اللَّهِ ﷺ ، طلبَ مِنَ الْمُـشْـركِينَ فى



صُلْحِ الْحُدَيْبِيةِ أَنْ يكْتُبُوا : (مِنْ مُحمدٍ رسُولِ اللَّهِ) ، رَفَضوا وقالُوا : لوْ كنَّا نؤْمِنُ أنكَ رَسُولُ اللَّهِ أَصْلاً ما قَاتَلْنَاكَ .. ولكِنِ اكْتُبْ مِنْ (مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ) ، فقالَ لهمْ رسولُ اللَّهِ ﷺ : (واللَّهِ إِنِى لَرَسُولُ اللَّهِ وإِنْ كَذَّبْتُمْ) .

ثمَّ قالَ لِكاتبِ الصَّحيفةِ :

ـ (اكْتُبْ ما يَشاءُونَ) . .

فكتبَ مِنْ (مُحَمَّدِ بن عَبْدِ اللَّه) . . .

ولمْ يكَدْ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاس) ينْتَهِى مِنْ حِوارِهِ مع هؤُلاءِ الْخَوارِج ، حتى كانَ أكْثَرهُمْ قد ثَابوا إِلَى رُشْدِهِمْ وعادُوا إِلَى صَوَابِهِمْ ، بعْدَ أَنْ أَقْنَعَهُمْ (ابْنُ عبَّاس) بهذا الْمَنْطِقِ الْبَاهِرِ بخطئِهم وضَلالِهمْ .

وقدْ تجلَّتْ عَبْقَرِيَّةُ (ابْنِ عبَّاسٍ) وظهرَتْ حِكْمَتُه وبُعْدُ نَظَرِهِ فى هذا الْمَوْقِفِ الْعجِيب .

فذاتَ يوْمٍ وبَيْنَما هو جالسٌ يفْتِى فى مسائِلِ الدِّينِ فى الْمَسْجِدِ ، إِذْ جاءَهُ رجلٌ يسْأَلُه السُّؤالَ التَّالِى :

ـ يا بْنَ عَمِّ رسُولِ اللَّه ﷺ ، هلْ لِلقاتِلِ توْبَةٌ ؟

نظَرَ (ابْنُ عبَّاسٍ) طويلاً فى وجْهِ الرَّجُلِ ، وتفرَّسَ ملامحَهُ قبْلَ أَنْ يُجيبهُ ثمَّ قالَ :

ـ لا ، ليْسَ للْقاتِلِ توْبَةٌ .

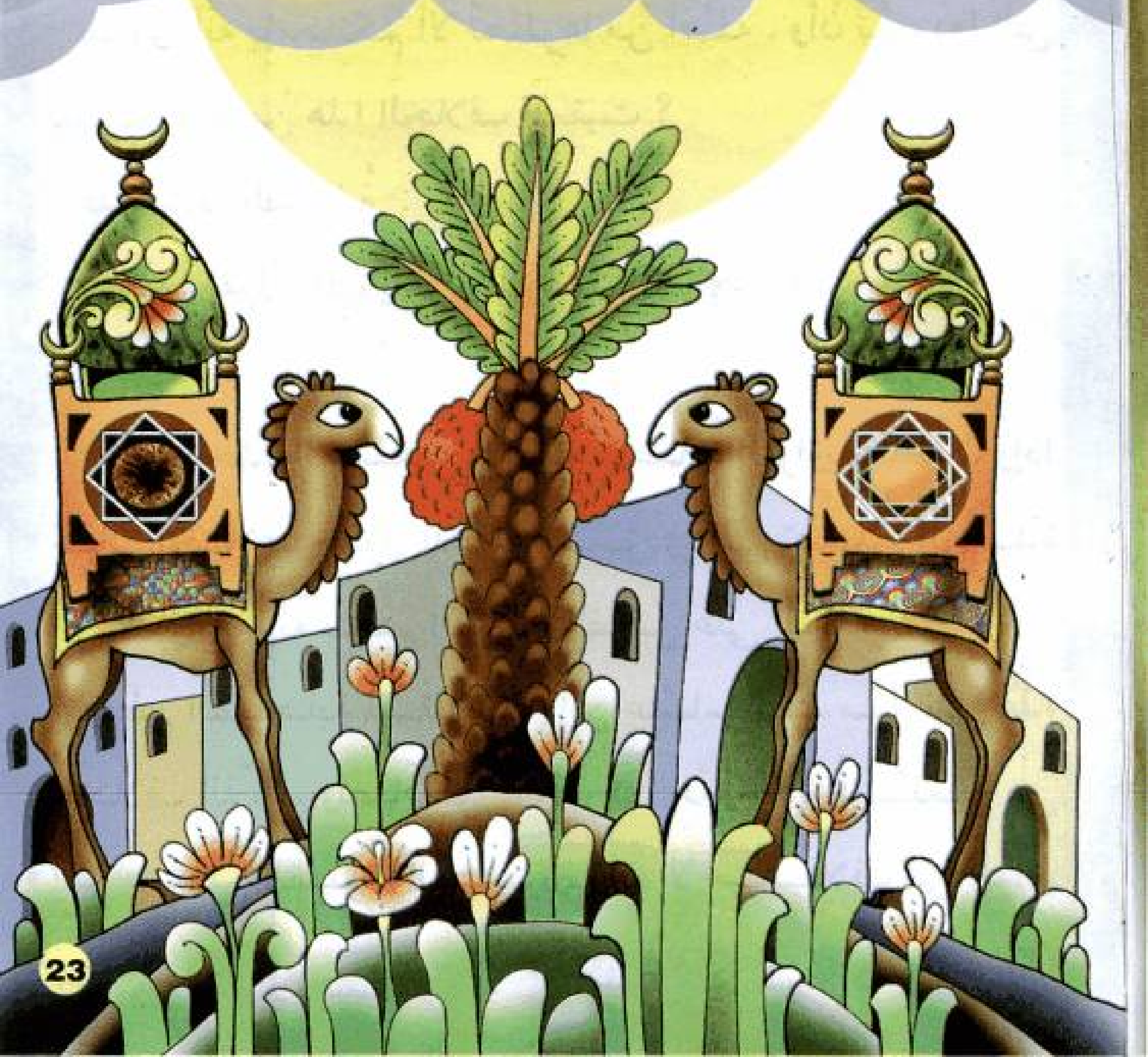
ولمَّا انْصرَفَ الرَّجلُ ، تعَجَّبَ الصَّحابَةُ وسأَلوا (ابْنَ عبَّاسٍ) فى دَهْشَةٍ :

ـ كيْفَ تقولُ للرَّجُلِ : إِنَّ الْقاتلَ ليْسَ له توْبةٌ ، ومنَ الْمَعْروف أَنَّ بابَ التَّوْبةِ مَفْتوحٌ أمامَ الْعُصَاةِ مَهْما كانَ مقْدارُ الذَّنْبِ الذى فعَلوهُ ؟

فابْتَسَمَ (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) وقالَ :

ـ أَجَلْ ، إِننى أَعْـرِفُ حُكْمَ اللَّه فى ذلك ، ولكِنِّى تفـرَّسْتُ فى وَجْهِ الرَّجُل ، فأَحْسَسْتُ أَنَّه يُفَكِّرُ فى ارْتِكَابِ تلْكَ الْجَرِيمَةَ ثمَّ يتوبُ بعْدَها ، فأَرَدْتُ أَنْ أَسُدَّ أَمامَهُ البابَ حتى أَمْنعَ وقُوعَ هذه الْجَرِيمَةِ .

وتأكَّدَ للصَّحابَةِ صِدْقُ إِحْساسِ (ابْنِ عبَّاسٍ) فقدِ اقتَفَوْا آثارَ الرَّجلِ وتأكَّدُوا مِنْ نِيَّتِه .



وفى إحْدى السَّنوات اخْتَلفَ الْمُسْلمون فى عددِ صَلاة التَّراويح :
هلْ يُصَلوُّنهَا إحْدَى عشْرَةَ ركْعَةً أَوْ إحْدَى وعِشْرينَ ركْعَةً ؟
وكادَ هذا الْخلافُ يتحوَّلُ إلَى قِتالٍ ، وأَسْرعَ الصَّحابَةُ نَحْوَ (ابْنِ عبَّاسٍ) لِكَىْ يسْتَفْتُوه فى هذا الخلافِ .

وعلى غَيْرِ عادته ظهرَ الْغَضَبُ الشَّديدُ على وجْهِه وقالَ والألَمُ يَعْتَصرُ قَلْبَهُ ، بعْد أَنْ رأى حالَ الْمُسْلمين :

ـ أَرى أَنَّه بإِمْكانكُمْ أَلاَّ تُصَلُّوها مِنْ أَصْلِه ، وأَنْ تَعُودُوا إلَى بُيُوتكُمْ بدَلاً مِنْ هذا الْخِلافِ الْمَقِيتِ ؟

فلما سأَلهُ الصَّحَابةُ :

ـ كَيْفَ تقُولُ ذلكَ يا بْنَ عَمِّ رَسولِ اللَّه ﷺ ؟

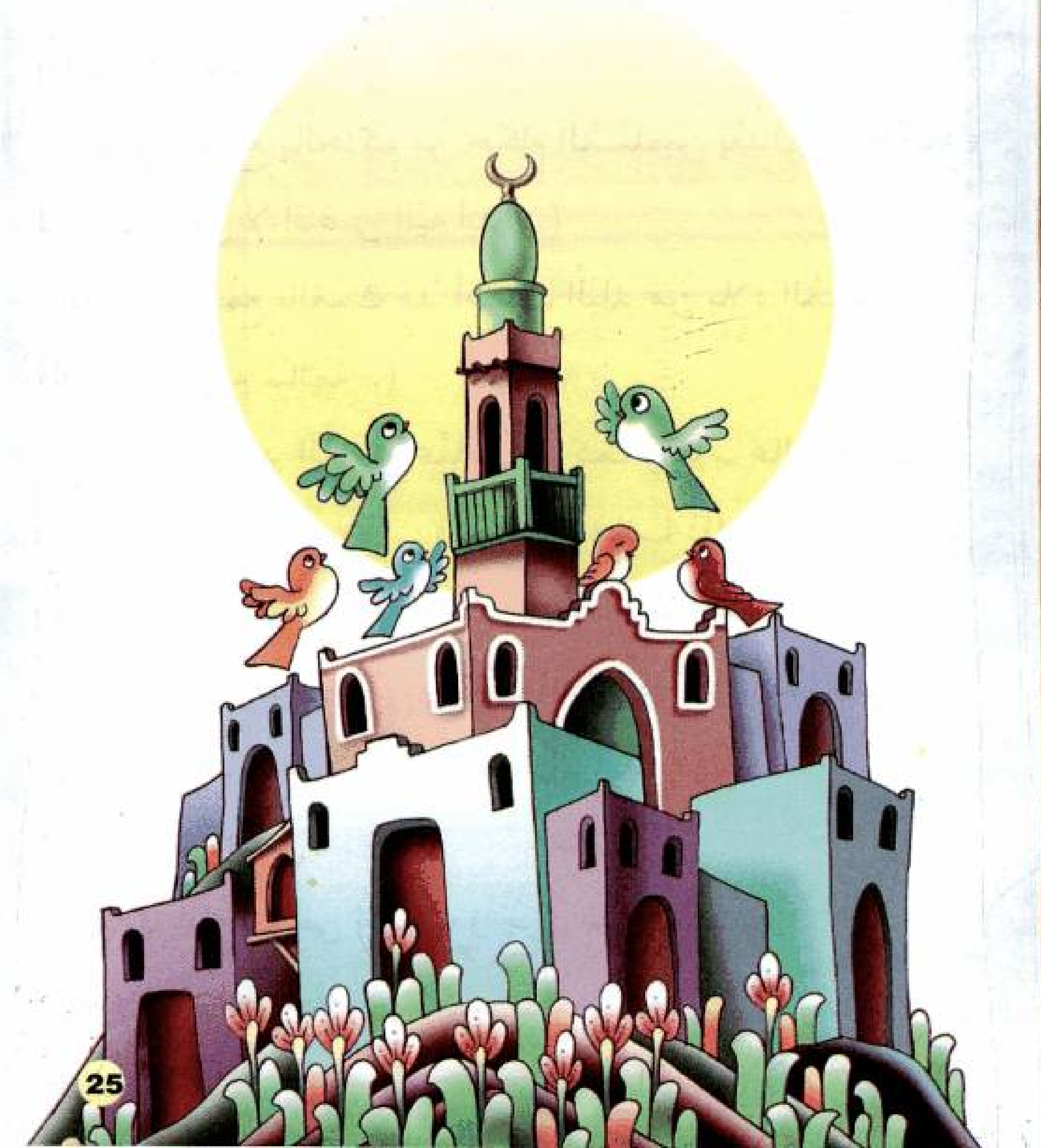
أَجابَ :

ـ لأَنَّ وَحْدَةَ الْمُسْلمِينَ فريضَةٌ ، وصَلاةُ التَّراويح نافِلَةٌ ، وإذا كانَ الْخلافُ حوْلَ النَّافلَةِ سَيُؤَدِّى إلى تصَدُّعِ الْوَحْدَةِ الإسْلامية ، فإِنَّهُ يتحتَّمُ أَنْ نُقدِّمَ الْفَرْضَ على النَّافلَةِ .

وفَطنَ الصَّحَابَةُ لِمَقْصَدِ (ابْنِ عبَّاس) فنَدموا على هذا الْخلافِ الذَّميم وتصَافَحُوا ، وأَدْركوا أَنَّ وَحْدَةَ الْمُسْلمين هى أَهَمُّ دعَائِمِ الْقُوَّةِ والنَّصْرِ ، وأَنَّ الاخْتِلافَ فى الرَّأى

لا يَنْبَغِى أَنْ يُفْسِدَ الْمَوَدَّةَ والصَّفاءَ .

وكما كانَ (ابْنُ عبَّاسٍ) عالِمًا آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ ، فقد كانَ حَلِيمًا لا يتهوَّرُ ولا يَتَسَرَّعُ فى الأُمور .



فـقـدْ تطاولَ عليْـه أَحَـدُ الْحَـمْـقَى وشَـتَـمـهُ ، فلم يُبـادلْهُ (ابْنُ عبّاس) الشّتْمَ ولكنهُ اكْتَفى بأَنْ قالَ له :

ـ إنّكَ لَتَشْتُمُنى ، وإنَّ فِىَّ ثَلاثَ خصَال :

(إِنى لآتى على الآيةِ مِنْ كتابِ اللّهِ ، فَلَوَدِدْتُ أَنْ جميعَ النّاسِ يعْلمونَ ما أَعْلَمُ .)

(وإِنى لأَسْمَعُ بالْحاكِمِ مِنْ حُكّامِ الْمُسْلِمين يَعْدِلُ فى حُكْمِهِ فأَفْرَحُ ، ولَعَلّى لا أُقاضِى إِلَيْه أَبَداً .)

(وإِنىَ لأَسْمعُ بالْغَيْثِ قدْ أَصابَ الْبَلَدَ مِنْ بلادِ الْمُسْلِمين ، فأَفْرَحُ ومَالى به سَائِمَةٌ .)

وإِذا كانَ (عَبْد اللّهِ بْنُ عبّاس) ـ كما رأَيْنا ـ عالمًا فَقيهًا ، مُتَحَلّيًا بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ ، فقدْ كان بِجانبِ ذلك كُلِّهِ مِنْ أَجْوَدِ أَهْلِ الأَرْضِ . فقد جاءهُ رجلٌ مِنَ الأَنْصار فقال له :

ـ يا بْنَ عَمِّ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إِنّهُ وُلِدَ لى فى هذه اللَّيْلَةِ مَوْلودٌ ، وإِنّى سَمَّيْتُه باسْمِكَ تَبرُّكًا مِنْك ، وإِنَّ أُمَّهُ ماتَتْ .

فقال (ابْنُ عبّاس) :

ـ باركَ اللّهُ لك فى الْهِبَةِ ، وأَجَركَ على الْمُصِيبةِ .

ثمَّ دعَا بوكيلِه وقالَ له :

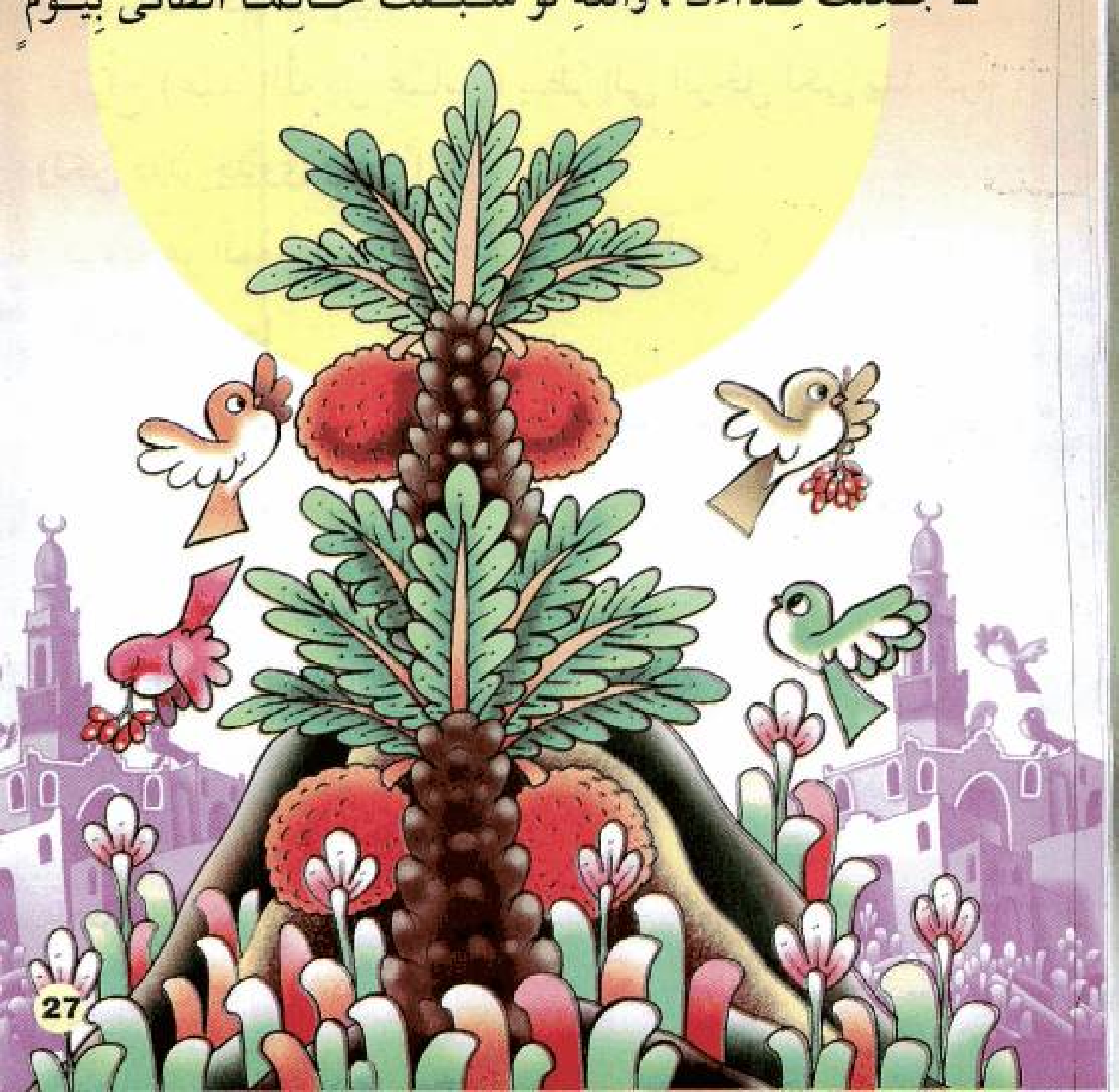
- انْطَلِقْ السَّاعةَ فاشْترِ لِلْمَوْلودِ جارِيَةً تَحْضِنُهُ ، وادْفَعْ لأَبِيه مِائَتَىْ دينار لِيُنْفِقَهَا على تَرْبِيَتِه .

ثمَّ قالَ للأَنصاريِّ :

- عُدْ إِلَيْنا بعْدَ أَيَّامٍ ، فإِنَّك جِئْتَنا وفى الْعَيْشِ يُبْسٌ ، وفى الْمالِ قِلَّةٌ .

فقال الأَنْصارِىُّ :

- جُعِلْتُ فِداءَكَ ، واللَّهِ لوْ سَبَقْتَ حاتِمًا الطَّائىَّ بِيَوْمٍ



ما ذكَرَتْهُ الْعَرَبُ ، وما ذكَرَتْ كرَمَهُ بالنِّسْبَةِ لكَرَمِكَ وَجُودِكَ .

وكانَ (عبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) يُضْرَبُ به الْمَثَلُ فى الْجُودِ والْكَرَمِ ، وحِكاياتُهُ فى هذا الْبابِ كثيرةٌ وَمشْهُورَةٌ .

فقد جاءهُ رجلٌ وهو بِفِنَاءِ دَارِهِ وقال لهُ :

ـ يا بْنَ عبَّاسٍ ، إنَّ لى عِنْدكَ مَعْرُوفًا سابقًا قدْ صَنَعْتُهُ لكَ مِنْ قَبْلُ ، وقد احْتَجْتُ إلَيْه .

فراحَ (عبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) ينْظُرُ إلى الرَّجُلِ لِكَىْ يتذكَّرَهُ ، ولكنْ دونَ جَدْوَى وأَخيرًا سأَلَهُ :

ـ وما هو الْمَعْروفُ الذى صَنَعْتَه لى يا أَخِى ؟

فأَجابَ الرجلُ :

ـ رأَيْتُكَ واقفًا بفناءِ زَمْزَمَ ، وغُلامُكَ يُحْضِرُ لكَ مِنْ مائِها ، والشَّمْسُ قدْ صَهرَتْكَ ، فَظَلَّلْتُكَ بفضْلِ كِسائى حتى شَرِبْتَ .

فقالَ (ابْنُ عبَّاسٍ) :

ـ أَجَلْ إنِّى لأَذكُرُ ذلك .

ثمَّ قال لِغُلامه :

ـ ماذا عِنْدَكَ مِنَ المالِ ؟

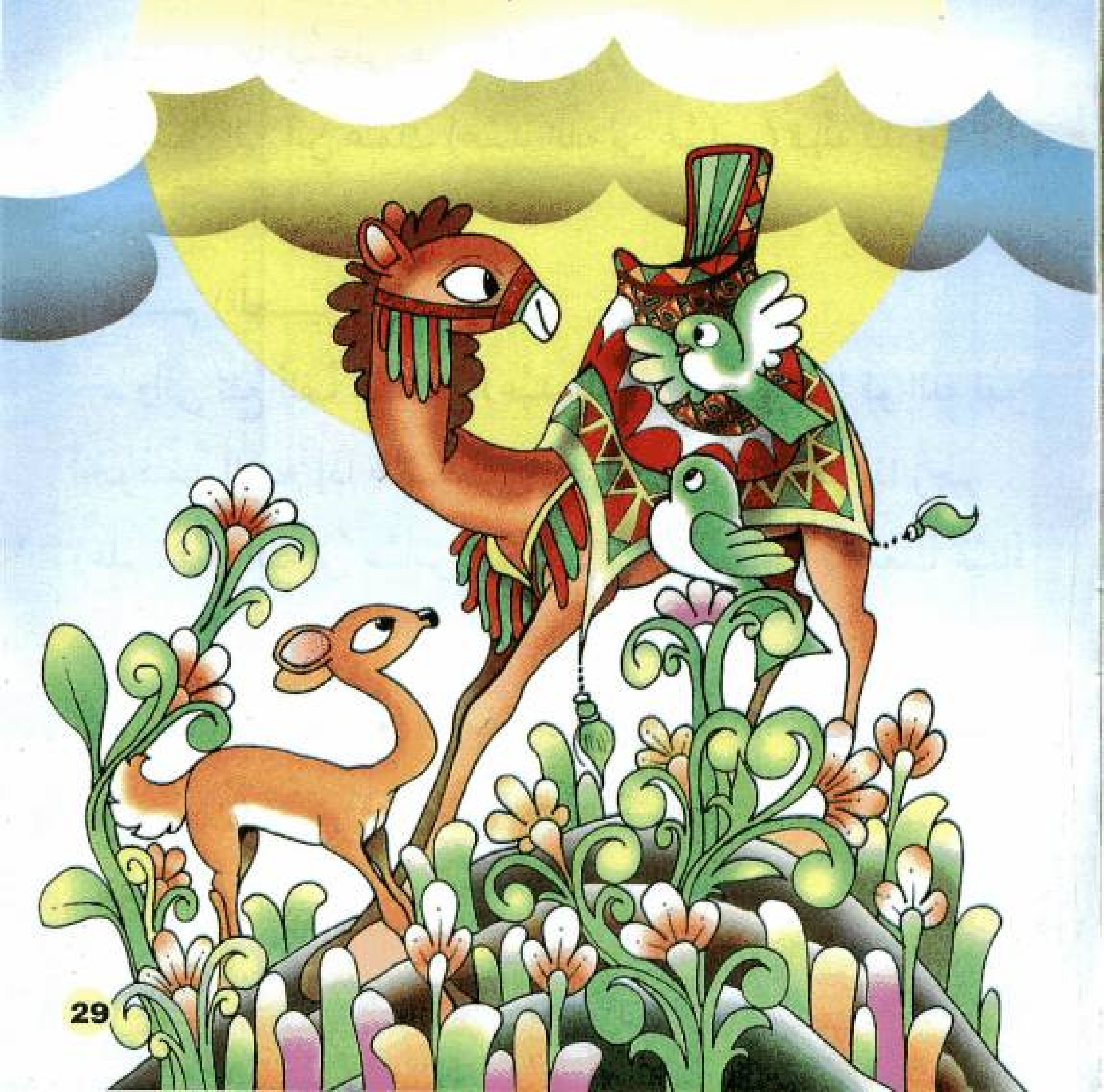
فقال الْغُلامُ :

ـ مائَتَا دِينارٍ ، وعشْرَةُ آلاف دِرْهَمٍ .

فقال (ابْنُ عبَّاس) :

ـ ادْفَعْها إلَيْه ، وما أَراها تَفِى بِحَقِّ يَدِه ومَعْروفِه نَحْوَنا .

بَلْ أَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ أَنَّهُ مَنَح بَيْتَهُ الذى كانَ يَسْكُنُ فِيهِ للصَّحابِىِّ الْجَليلِ (أَبى أَيُّوبَ الأَنْصَارِىِّ) بِنَفْسٍ راضِيَةٍ لمَّا عَرفَ أَنهُ فى حاجَةٍ



إِلى سَكَنٍ . وقدْ دفَعَهُ إِلَى ذلك جوُدُهُ وكَرَمُهُ ، وأَنَّ (أَبَا أَيُّوب) هذا كانَ قدْ تركَ مَنْزِلَهُ للرَّسولِ ﷺ بعْدَ هِجْرَتِه إِلى الْمَدِينَةِ .

وذاتَ مرَّةٍ اخْتَلفَ (الْحُسَيْنُ بْنُ عليٍّ) معَ (مُعاوِيَةَ بْنِ أبى سُفْيانَ) فى الرَّأْيِ ، فمنعَ (مُعَاوِيَةُ) عَنْهُ عطَاءَهُ ـ الرَّاتِبَ الذى كانَ يتقاضاهُ ـ فمَرَّ (الْحُسَيْنُ) بأَزْمةٍ ماليَّةٍ شديدَةٍ .

ولما رَآهُ خادِمُهُ على هذه الْحالةِ قال له :

ـ أَرْسِلْ إِلى ابْنِ عَمِّكَ (عبْدِ اللَّهِ بْنِ عبَّاسٍ) فإِنَّه قد رَبِحَ مِنْ تجارتِه أَلْفَ أَلْفَ دِرْهم .

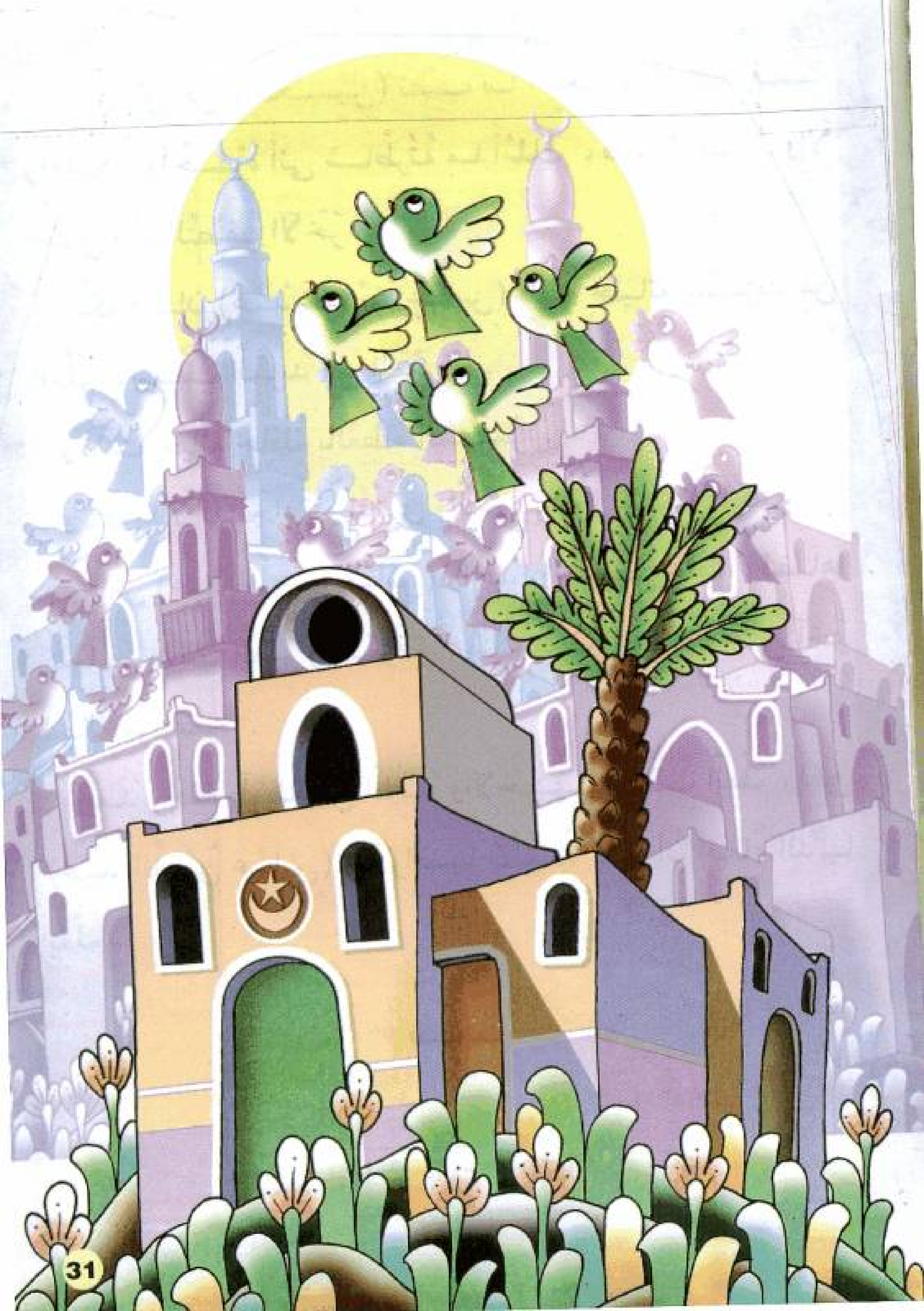
فابْتَسمَ (الْحُسَيْنُ) وقال :

ـ وأَنَّى تقعُ أَلْفُ أَلْفٍ مِنْ (عبْدِ اللَّهِ بْنِ عبَّاسٍ) ؟! فَوَ اللَّهِ لَهُوَ أَجْوَدُ مِنَ الرِّيحِ إذا عصَفَتْ ، وأَسْخَى مِنَ الْبَحْرِ إِذا زَجَر .

وعلِمَ (عبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) بما يَمُرُّ به (الْحُسَيْنُ) فدَمَعَتْ عَيْناهُ وقال :

ـ ويْلَكَ يا (مُعَاوِيةُ) ! أصْبَحْتَ لَيِّنَ الْمِهادِ رَفِيعَ الْعِمادِ ، و (الْحُسَيْنُ) يَشْكُو مِنْ ضِيقِ الْحَالِ وكَثْرةِ الْعِيالِ .

ثمَّ قالَ لِوَكِيلِه :



ـ احْـمِلْ إلى (الْحُـسَيْنِ) نصْفَ مـا أَمْلِكُهُ مِنْ ذَهَبٍ وفِـضَّـةٍ ودَوابَّ . وأَخْـبِـرْهُ أنى شـاطَرْتُهُ مـا أَمْلِكُ ، فـإِنْ كـفـاهُ ، وإِلاَّ احْمِلْ إليْهِ النِّصْفَ الآخَرَ .

وهكذا كـان (عبْدُ اللَّهِ بْنُ عبّاسٍ) طِيلَةَ حَيـاته يسْتَـزِيدُ مِنَ الْعِلْمِ ، ويطْلُبُ الْمَزيدَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ .

وكَانَتْ حَياتُهُ حافِلَةً بالْعَطَاءِ الْمُسْتَمِرِّ .

وكانَ مِثالاً للشَّجاعةِ والتَّقْوَى والْجُودِ بشكْلٍ مُنْقَطِع النَّظير .

وعاش (عبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) واحِدًا وسَبْعِينَ عامًا ، قضاها كُلَّها فى طَلَبِ الْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ ، مُنْذُ نُعُومَةِ أظْفارِهِ وحتى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ عُمْرِهِ .

وبعـدَ رِحْلَةٍ طويلةٍ مِنَ الْجِـدِّ والاجْـتِـهـادِ وطَلَبِ الْعِلْمِ ، لَقِيَ (عبْدُ اللَّهِ بْنُ عبَّاسٍ) رَبَّهُ راضِيـًا مُطْمَئِنًا بعْدَ أَنْ أَضـاءَ الدُّنْيا بِعِلْمِهِ . .

تـــمَّت

رقم الإيداع : ٢٠٨٠

الترقيم الدولى : ٤ ـ ٣٠٧ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧